دیزیره سقال

نرسیس



۲۰۲۰

دیزیره سقال

نرسیس



۲۰۲۰

(...ونرسيس هنا ليس شخصيّة أسطوريّة وحسب، بل هو خلاصةُ ذات كلٍّ منّا في هذا الوطن الممزَّق، تنعكس في مراياه، وتبحث عن إرضاء نفسها، ولا تنتهي إلّا إلى هذا الأمر... إنّها ذات كلٍّ منّا حين لا يكون فيها سوى الرغبة المحرِقة في أن تنتزع كلّ شيء لنفسها، ولو كلّفها هذا ضياع الوطن...)

أطياف نرسيس

غَرَقًا ،

مُصادفةً مُفاجِئةً كالصّدمة،

ملاءً وعدمًا،

رعشةً،

ما زلتَ، ما زلتَ، يا نرسيس ...

– طيفٌ صفْر –

في هذا الفراغ الأوحد، تُحْشَر انعكاساتُكَ حول الذعر، وجعًا حنونًا...

في هذا الفراغ، مُمَزَّقٌ شَمْلُكَ،

مَسكونٌ بألف ألف هاجس.

– طيف ١ –

كيف لا تعرف الأشياء،

وأنتَ ما زلتَ شيئًا مثلها؟

– طيف ٢ –

عندما أَسكُنُ مَأْساتَكَ، يروقُ لي أن أُخَمِّنَ ذهولَكَ أو ارتباكَكَ الصعبَ كالأرض. وإذ يُتْلِفُكَ انتظارُكَ الدائريّ، يقودني حبُّكَ إليكَ، تنفتح نفسي، وأبدأ.

ههنا

لا شيء سوى التوق إلى الوصول،

إلى وطن بعيد عنّا كأنفسنا...
وحين يتسرّب الطيش إليكَ في غمرة الجموع
تعرف أنّكَ صرتَ وحيدًا،
وأنكَ انكسَرت...

– طيف ٣ –

يعاودُكَ بُعْدٌ عن ذاتكَ، غَضَب أَخّاذ
في هذا الوطن المنزوعِ الوجه.

لَعلّه الألق.

لَعلّه الغياب...

– طيف ٤ –

في غمرة الحنين عَوالمُ غارقة، يحجبها أَلفُ ستار وستار. وعيناكَ قائمتان تبحثان عن طريق.

بعيدٌ هو الوصول في حضن الألم،

بعيد هو الإياب.

– طيف ٥ –

يغلقكَ انتحار.

يَفتحكَ انتحار،

ووردةٌ حمراءُ لا تعرف إلاّ الانتكاس...

– طيف ٦ –

ضَياعٌ

بين النافذة المقفَلَةِ

وانفلاتِ المدى.

– طيف ٧ –

بين ذاتكَ والآخرين ضَياعٌ،
هَل تخرج؟

– طيف ٨ –

عندما يَشحب وجهُكَ بين المسافة وعناقيد الجوعِ، أَتُراكَ تُراكَ، يا نرسيسُ، أَبْعَدَ من وَهمكَ؟ تُراكَ

أَغْمَض من أن تصيرَ شيئًا؟ أو وجهُكَ يتقاطعُ بين الأشلاء، فلا مَلامحَ ولا قناع؟

عندما يُقصيكَ جُرحُ الوطنِ عن ذاتكَ البَهيّة، ويُطاردكَ الشوقُ في كلّ مَلجإ، ألا تُهَدِّدُ عيناكَ بالانتحار؟ ألا يكتمكَ الشوقُ فتأوي إلى نطفةٍ تحت المهَبّ تَحوكُ لكَ فَنًّا للضَّياع هكذا؟ وقد يسألكَ غبارُكَ

الفضفاض عن عُرْيٍ، فتصمت، يا نرسيس، تصمت...
حتّى الغياب!

– طيف ٩ –

ما يُجديكَ بعدُ
أن ترفع هذه الرايةَ الممزَّقَة
بدمكَ ؟
ما يُجديكَ بعدُ

أن تلثمَ هذه الأرضَ
بجسدكَ؟

– طيف ١٠ –

وحين يصقللكَ السكوت، قد يعود إليكَ الوعيُ، ثمَّ ينبتُ فيكَ الورَقُ والترابُ كما في الأرض.

حين يصقللكَ هذا الدم البهيّ، قد تعود وجهًا واحدًا في الهبوب:

نصفُه أوّل الطريق،
نصفُه آخر الطريق.

(٢٤/ ١٢/ ١٩٨٢)

قصيدة نرسيس

– ١ –

لماذا يَنْصدعُ حول جفنكَ هذا الوجودُ الرهيب، وتُطرِق عيناكَ نحو التراب في جزيرة العزلة الكبيرة، وسط الوطن؟ لماذا ينفتح وجهُكَ للمنفى، وحيدًا، بلا ملامحَ، يصدَعُ السقفَ الذي تَثقبه النجوم؟ وكيفَ تَنبتُ في شقوقِ الصخور، وأنتَ شهابٌ يخطِّطُ الجرحَ، ويكسِرُ الفولاذَ والرصاصَ على أمداءِ الجسد؟

هذا المنفى الطويل وجهُكَ، هذا الحَطَبُ المشتعلُ خلاياكَ الأبديّةُ، هذه الذبيحةُ المتعالية نحو... الأرضِ، أنتَ يا نرسيس.

في أَقصى العطش، حيث ريح المجاعة تسكبُ طولَ العذاب؛ في أَقصى البردِ، حيث الترابُ وجهٌ بلا مَلامحَ، تمتدّ أحشاؤكَ السرمديّة، يسكنكَ التيه العارمُ

وأنتَ تلبس الرحيلَ، يا نرسيس، وتفتحُ غربةَ الوجودِ في أرضكَ الصغيرة، فيستيقظُ الغوى، وتتكسّر البراءة:

هنا

حول أَيقونةٍ دنّسها النعاس، يهجعُ صمتُكَ المرميُّ، وترتدّ إليكَ آلافُ الحناجرِ المقتولة...

في أرضكَ الصغيرةِ بحيرة الصدى اللازورديّ، وسيوف المسافةِ تَقُدُّ الهباءَ. وكمْ أَرْخَيتَ على عينيكَ شَهوتَكَ الأبديّة، كم اصطدمتَ بنفسكَ وأنت تبحثُ عن ذاتكَ في حقول الضياعِ، لكنّما وجهكَ كان بلا قرار، وهلَعُكَ الغريبُ صَدَّ عنكَ الرؤيا.

كنتَ إيّاكَ دائمًا.

كان الحنينُ مذبحتَكَ الدائمة...

كُنْتَ إيّاكَ في حَجَرِ الصمتِ
تكشطُ جلْدَ الكلام
وتُمْحلُ في الحلم الهارب.

كُنْتَ إياكَ

تَستغرقُ في وجودكَ السرابيّ...

ولماذا يحملكُ الفولاذ في رحلة الطيشِ إلى حقول الفجيعة، وأنتَ ذات بلا هويّة، تحاول أن تُمسِكَ بالصدى؟ لماذا يحترفكَ الذهولُ عندما يغرقُ الزمنُ في عطش المسافةِ؟ ألا أَرْخَيْتَ على نزيفِكَ ستارَ الهدوء، وعُدْتَ من صَخَبكَ المصدوعِ.

كُنْتَ إياكَ،
وجهًا ماحلًا في غربةِ الحجر،
صَبرًا سرمديًّا يعتصر الأرضَ...

– ٢ –

متعبةٌ هي البقيّة. متعَبٌ وجهُكَ، يا نرسيس. ما أَبْطَأَ البحرَ يسقط بعيدًا مِنْ أغوارِكَ! ما أبطأَ الأرضَ الداميةَ وهي تدخل إلى عينيكَ! مُتْعَبٌ وَجهُكَ يا

نرسيس، فَوَهْجُ الغيرةِ يسلبُكَ الحَيرَة، والنارُ تُحرقُ التراب... وعندما يَحفرُكَ الوجْدُ على أَزِقّة الجوعِ، يبقى لألاؤكَ الغريبُ رعشةً فريدةً في انتفاضةِ الأسَن.

هكذا كنتَ: اندلاعًا في الأرض المحروقة، تبحثُ عن وجود خارج الوجود، تبحث عن امتلاء في أقبية السراب، وجسمُكَ الحَطَبيُّ يُمسِكُ بالرحيل... هكذا كنتَ: أبدًا في ستاركَ المزمن، توغِلُ حيثُ لا رجوعٌ...

لكنْ

بين طيفكَ الأثيريّ وكثافةِ الحَجَر

سَفَرٌ طويلٌ،

وجرحٌ لاهِثٌ لا يعرف الإقامةَ.

(٦/ ١١/ ١٩٨٢)

أصوات

البحر

لِمَنْ، لِمَنْ، أيّها المرمر الخاشعُ ،كلُّ هذا الأسَنِ الغريب؟ لِمَن سطوعُكَ المهيبُ على مَهَبّ الريح اللازَورديّة؟ لِمَن صَداكَ اللجوجُ، أيّها النرجسيُّ، بعدَ اختفاءِ المسافة؟

دونَكَ المدى يخشعُ بين جرأة الوِدَّ وثمالةِ الغضب،
وحول عينيكَ رَهجٌ من الأسرار...

أَيُّها الضِدُّ،
عَلِّمْنا أن نكتنز الضدَّ مثلكَ.
علِّمْنا أن نسكنَ هذا الأسَنَ المخادِعَ.
(٣١/ ١٠/ ١٩٨٢)

الصدى

تَعروكَ الرعشةُ، ونِثارُكَ، كالأيائلِ، يقفزُ بين الشقوق. أيّها القريب البعيدُ كالظّنّ، أيّها الانعكاس السرابيّ في عَرَضيّةِ المكان، أما لو استَحْمَمْتَ في سَيْلِكَ المتردّد لَتَزَلْزَلَتْ في قراري صَومعةُ اليقين، وانهارت عِصمةُ المعرفةِ.

لكنْ،
بين وَجهِكَ وَوجهي آلافٌ من اليواقيت السريّة،
ودمٌ طويل
يفتحُ زنزانةَ المكان...

(٣١/ ١٠/ ١٩٨٢)

الأرض

رحِمٌ أم خواءٌ يَتَهَيَّأُ للرَّحم؟

وجهٌ بينَ الفينةِ والفينةِ يصدعُ اليقين، يُوَحّد الجزء، ويقدّس التواصل. وجهٌ يكرّسُ فِعلَ الديمومةِ بين الهوّة التي تَأْلَفُ وهجَ السقوط والعُريِ الذي يخرق هشاشةَ العالم.

رحمٌ تَكَوَّرَ فيها السـِـرُّ، وخواءٌ يمتصّ الضـــوءَ والأشياء.

هذا حضورُكِ:

سَرمَدٌ أَخضرُ يبقى على تَهَيّؤٍ،

هَدْأةٌ خَفيّة تتسرّب إلى الأشياء...

(٣١/ ١٠/ ١٩٨٢)

الحلم

ثمّةَ، بينَ هَفوةِ الحِسِّ وطعمِ السراب، انصِداعٌ جميل، وتوتّرٌ يفتّتُ اليقين. ثمّةَ استسلامٌ لمهَبٍّ عجيب يسيّج الحدودَ باللانهاية...

ثمّةَ نوعٌ من الحضور يشبه الدوار،
أو

قَسوةَ الحنين
إذْ
يَنفتح اللونُ والمدى على مصراعيهما،
ويبدأ الرحيل
خارجَ المأساةِ المقيمة...

(١/ ١١/ ١٩٨٢)

الكابوس الأخير

تعاودُني، ثمّ تُقفلُ عينيكَ،
بعيدًا بعيدًا،
على لجّة الهاجسِ المستحيل.
كانَ...
أوّلُ الحكاية "كانَ" المريضة،
وأوّلُ الصمت.

على عُنْفِكَ المعتِمِ ليلٌ وَثير، وتحت وَهْجِكَ الداكِنِ فُتاتُ الحلمِ الذي أَنْجبَك. بيننا الهوّةُ، إذ يستدير على عُنُقِكَ ليلٌ، ويَضغطُ عليّ. وفي انسلالكَ البطيءِ تَنحلّ قافلةُ الفكرِ، ويحملُ القافلةَ هَجْرٌ مُخْتَنِقٌ. على عُنفكَ المعْتِمِ أَمداءٌ مَطْلِيَّةٌ بوجهي، وَأَرْتالٌ حديديّة تخرجُ من جرحِكَ.

آخر الحكاية "كانَ" المريضةُ،

وآخر الصمت.

القريب

(إلى جوني)

قد تُطِلّ عيناكَ من وراء هذا الشــفير الشــفّاف، إذْ يُؤْنِسُكَ تُرابُك، ويُقفِلُكَ الذهول.

قد تَســأَلُ عاصـفتَكَ أَنْ تُسْـكِنَكَ فيها، فتحملَ الليلَ المجروحَ، وتُقْفِلَ عينيكَ على كـافورِ المـديد. وربّما أَشْعَلَكَ الظلُّ البعيدُ، فأَخذَ تقاعُسَكَ، ومَدَّكَ إليه.

لكنَّكَ

أنتَ الغريبَ في هذا الوطن الغريب،

تحملُ في جيبكَ السفرَ... وتحلم...

(٢٧/ ١٢/ ١٩٨٢)

الأرَج

هَواؤُكَ المديد يرصّعُ الثرى، ووجهُكَ مَدٌّ تحتَ الدرب. وهذا المهرجانُ الصامتُ كيفَ لا يمسحُ الصلاةَ عن عُرْيِ البراري؟

حَوْلَكَ هذا الوطنُ المتوَرِّم،
حَوْلَكَ الصبرُ الطويلُ في الخشوعِ الأبديّ.

الدخان

غُيومٌ... غيوم... زَرَدٌ يرصّعُ التَّرْجيعَ... شعوبٌ شفّافةٌ على عيون المدى. ألا يسألُكَ هذا السديمُ المقطَّعُ عن أُبَّهَةِ الجرحِ؟ ألا يسألُكَ عن مدًى أقْفَرَ من عيونِ الصقيع؟

لماذا،

لماذا، إذًا، هذا المروقُ الهائل؟
لماذا ينحلُّ الوطنُ فيكَ ويذوبُ؟
لماذا هذا السقوطُ المستمرُّ في مدائنِ الخرافة؟
(٢٦/ ١٢/ ١٩٨٢)

الحجر

وحدَكَ قابعٌ في كابوس صمتكَ، مُضْرِمًا صَمْتَكَ في حقول الأسَنِ السَّنَويّ، تُناديكَ الزّرْقةُ والخضْرةُ، ويحاصرُكَ الوطن. فلِمَ، أيُّها المأتَمُ الغريبُ، شُحوبُكَ الأَبيضُ؟ لِمَ هذا التأمُّلُ البليدُ في هجعةِ الوطنِ التي لا تنتهي؟

أَلا كُنْ ملامحَ،
أَلا كُنْ شَكلًا،
وَلْيَمَّسِحِ الصمت.

(٢٧/ ١٢/ ١٩٨٢)

الوردة

تَمْضَغين صَمتَكِ الأحمر،
وتُغلِقينني
عليكِ،
أيّتها الرائحةُ الحمراء،
والدَورةُ القُرْمُزِيَّةُ.

تَكونينَ
ثمّ... لا تكونين،
وأَعْبرُ في نسغكِ
نطفةً...

هكذا
أُحاول أن أَسْكنَ فيكِ،
ويسكنُ الوطنُ.

السماء

المدى حافل باللازورد، وجُزُرُ الأَبْيضِ أَقْنِعَةٌ مُبعثرةٌ.

هنا وهناكَ أَرصفةٌ، وبينَ الوطنِ والوطنِ وجهٌ طويلٌ مِثْلَكِ... —

حلمٌ. فراغٌ بهِيّ أبهى من الفراغ.

امتِدادٌ غريبٌ لا شكلَ له،
إِلْفَةٌ بعيدةٌ من الظنِّ والتصوُّر، معتِ/ةٌ كهذا الوطن.

النجمُ يسطعُ فوق الصوّان الأزرق،
والمرمرُ الفريدُ في خشوعِه الأبديِّ.
(٢/ ٥/ ١٩٨٣)

الظلّ

دونَكَ سَتائرُ تُغلِقني في مُنْتَصفِ المشهد، دونكَ مدًى —كتابٌ للأشـياء. وعندما تَشـربُني صَـفحةُ مياهِ البحيرةِ أَقْشرُ الهوّةَ وأَنحني

حتّى

آخر

الـ

ـسماء...

دونكَ المهاوي أصــابعُ تقلبُ الصــفحةَ، والوَعْرُ مَدٌّ من صَـــخَبِ الصــــمت. وعِنْدَ قُدومِ النســـيانِ أَكتشـــفُكَ، وتَخلعُ الأرضُ أَرْدِيتَها، تُغَمِّسُ كَفَّيها في ٱلتماعٍ كالعطش –

لَعَلَّهُ العطشُ.

لَعَلَّهُ...

أراكَ، حينَ أراكَ كُوَمًا، هَباءً على رَذاذِ الذاكرةِ،

أو

حَطَبًا،

جَمْرًا للمكان –

لَعَلَّكَ خسوفٌ.

لَعَلَّكَ الـ...

لكنّما وَجْهُكَ يَسيل، يَسيل أبدًا بين يديَّ،

ويحضنكَ التلاشي، يحضنكَ، ثَمَّةَ، صمتٌ مدهشٌ...

رُبّما يَجيءُ وجهٌ.
ربّما ينفتح هذا الصمتُ الطوطَمِيّ.
ربّما يَصيرُ ساعِداكَ مبخرتينِ
أو جسدُكَ نذرًا...
ربّما يمَّسِحُ هذا الوطنُ الطَّوْطَمِيُّ،
أو...
يصير، يومًا، وطنًا...

وحينَ يأتي وجهكَ المذهِل، تَثْقلُ كالحقيقة، أو
تَتركُ الأشياءِ في هذا النصّ عاريةً، تغدو دوارًا —
مَدًّا،
كونًا يَخرجُ من النطفةِ؛
وتنحني
حتى
آخر
الـ
ـسماء...

صعبٌ حضورُكَ،

صعبٌ أَ،تَ

كهذا الوطن الغريب.

(٢٣/ ١٢/ ١٩٨٢)

الفهرس



...وكمْ أَرْخَيتَ على عينيكَ شَهوتَكَ الأبديّة،
كم اصطدمتَ بنفسكَ وأنت تبحثُ عن ذاتكَ في حقول الضياعِ، لكنّما وجهكَ كان بلا قرار، وهلَعُكَ الغريبُ صَدَّ عنكَ الرؤيا.

كنتَ إيّاكَ دائمًا.

كان الحنينُ مذبحتَكَ الدائمة...